Bernard Lewis : The Middle East A brief History of the Last 2.000 Yeas 1997

وجدت مكتبتي تحتوي على طبعتين من هذا الكتاب ربما اشتريت أحداهما والأخرى هدية – واحداهما أفخم فيها صور إضافية ولكن الروح واحدة – موجز لتأريخ الشرق في الألفي سنة الأخيرة ، ويقع الكتاب في 429 صفحة ، اي أنه يعطي كل خمس سنوات من تاريخ هذه المنطقة صفحة واحدة لأنه يستقصي المسارات الكبري التي شكلت كيان المنطقة ، ولا يستطيع القيام بذلك إلا جهبوذ ، ولعل بيرنارد لويس هو آخر جهابذة المؤرخين المتخصصين في الشرق الأوسط ، وله تلامذة عدديـن فـي السودان أصبحوا أساس المكتبة التاريخية السودانية ، وينحدر لويس من أسرة بريطانية يهودية وكان يعمل في جامعة لندن ثم انتقل إلى أمريكا ، حيث أصبح عضوا في مجلس العلاقات الخارجية الامريكية الذي يسهم في رسم السياسة الخارجية لدولة في حجم أمريكا وكان آخر ما قراـــه من كتبه What went wrong with Islam

وكتبه بعد احداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 " تدمير برجي التجارة العالمية " ولا ادري هل مايزال يقرأ ويكتب وهو في العقد العاشر من عمره – مولود 1916 – أي الآن مائة ستة .

اعتمد لويس في بناء قصته على المواد الأرشيفية حتى المكتوبة باللغات القديمة وعلى التوراه والأنجيل والقرآن وكتابات الرحالة والحوليات والشعر والأدب والحكاوي والاساطير بالإضافة إلى المصادر الحديثة وكمتخصص في التاريخ العثماني فقد أفرد فصولا له – كما أنه ينتبه لاشياء لايشبه لها عادة المؤرخين – مثلا اصل القهوة " البن " والتباكو والشاي ، حيث البن من إثيوبيا ومنها دخل إلى الجزيرة العربية ومصر ثم تركيا في عهد السلطان سليمان العظيم 1520–1566 وتاريخ الطباعة التي ادخلها للشرق الأوسط النازحون المطرودين من اسبانيا بعد عام 1492– وأول مطبعة أنشئت في استنبول كان في بداية القرن الثامن عشر ، أما دخول الشرق الأوسط في نادي الصحافة ، فقد كان بعد الثورة الفرنسية حيث صدرت أول جريدة في المنطقة من السفارة الفرنسية في استنابول 1795 – ثم بعد ذلك في عهد الباشا محمد علي في مصر والسلطان محمود في تركيا ، حيث في عام 1860 اصدرت الخلافة العثمانية جريدة عربية ، كما اصدر اليسوعيون جريدة في بيروت ، وإلى ذلك الحين كان فقهاء المسلمين يحرمون طباعة المصحف بالمطبعة ويقتصرون الأمر فقط على النسخ مثلما حرموا تعاطي القهوة ولكن اجماع الجماهير على تعاطيها حللها وأصبحت في كل بيت على

الأخص وسط طبقة الفقهاء وكذلك أمر الموسيقي والغناء الاجماع الشعبي على التعاطي بينما بعض فقهاء ما بعد قفل باب الاجتهاد ولايعرفون إلا التحريم .

أما الأذاعة فقد بدأت كذلك في تركيا عام 1925 بعد ثلاث سنوات من لندن ثم مصر 1939 وهو يريد أن يثبت أن التحديث في العالم الإسلامي أساسه الغرب ، ولكنه لايميل إلى استخدام مصطلح العالم الإسلامي وإنما يستخدم مصطلح الشرق الاوسط ، حتى يتم تجريد المنطقة من أهم خصائصها الثقافية – فالشرق الاوسط كيان جغرافي بلا محددات ثقافية بينما العالم الإسلامي المحدد الاساسي هو الإسلام.

ويشير لويس إلى أن الشرق الأوسط ، بلا استمرارية ثقافية وسياسية على عكس الإمبراطوريات كالصينية والرومانية، فالصين هي الصين وروما وملحقاتها هي روما– ولكن الشرق الأوسط تقلبات – سياسية واجتماعية – حيث تنزلت الكتب السماوية التي نسخ بعضها بعضا واللغات التي نسخ بعضها بعضا حتى استقرت على العربية والتركية والفارسية ، والنظم التي نسخ بعضها بعضا من خلافة راشدا إلى خلافة وراثية ، (الاموية) إلى ملك عضود" العباسية " إلى دويلات المماليك والسلطنات الطائفية أنتهاء بالملكيات والنظم الجمهورية والإنقلابات العسكرية والحروب الأهلية .

الدراسة تبدأ بما قبل الإسلام والمسيحية والإمبراطورة البيزنطية والفارسية إلا أن صلب الدراسة يبدأ بوفاة الرسول الكريم (ص) 8 يونيو 632م ، وانه بعد مائة سنة من وفاة الرسول الكريم ص حدث أكبر وأسرع تحول في التاريخ الإنساني – حيث امتدت الدولة الإسلامية إلى ماوراء الصين وغربا من المحيط الأطلسي وجنوبا إلى اصقاع افريقيا والسودان وشمالا حتى أوربا.

ويتعرض لاغتيالات الخلفاء – عمر ، وعثمان وعلى ثم الفتنة الكبري ثم خلافة عبدالملك بن مروان 685 م – 705م حيث واجهته ثورة الشقيقين مصعب بن الزبير وعبدالله بن الزبير ، حيث نصب الاول نفسه أميرا على الحجاز والعراق لمدة 9 سنوات,. وأهمية عبدالملك انه أول من ضرب عملة إسلامية.ومن قبل كانت لحكومات الإسلامية تستجلب الدنانير والدراهم الأجنبية – وكلمة دينار اصلها روماني – كما أن عبدالملك هو الذي بني المسجد الاقصي في 691م–72هـ – ومن قبل لم يك هنالك بناء وبشير لويس أن كلمة بيت المقدس لم ترد في القرآن – فقط هنالك إشارة إلى المسجد الاقصي الذي لم يك موجودا كبناء – وكأنه هنا يريد أن يضعف حجية احقية المسلمين بالمسجد الاقصي وأن المنطقة هي منطقة جبل الهيكل . ولكنه يتجاهل أنه كان قبلة المسلمين الأولي.

وحينما يدخل على الدولة العباسية ، يشير إلى بروز شوكة الموالي – كالمامون الذي امه أمة بربرية إلى أن اصبحوا سلاطين وحكام ابتداء بالبرامكة والمماليك والصفيرين والبويهيين " شيعة " ثم السلاجقة وبروز لغات إسلامية تكتب بالحرف العربي كالفارسية والتركية والاردية الخ .

ثم يدخل بعد ذلك على موضوع تخصصه وهو قيام الدولة العثمانية وإنجازاتها الحضارية وحروبها مع أوربا ودفاعها عن ديار الإسلام وصلتها بالسلطنات الإسلامية في آسيا الوسطي ويخصص فصلا عن اقتصاد هذه الممالك والتجارة ودورها في نشر الدعوة الإسلامية ويشير إلى أن مناطق التعدين في العالم الإسلامي في وادي العلاقي في السودان الحالي ( جنوب اسوان) حيث الذهب وان ازدهار التجارة أدي إلى بروز ظاهرة المصارف ( البنوك) والبيروقراطية المدفوعة الأجر في الدولة الإسلامية . وكذلك الجنود المحترفين كالإنكشارية في الدولة العثمانية.

ويشير إلى ظواهر الرق والعبودية والمخنثين والخصيان والتي لا اساس لها في الإسلام ولكنها للأسف برزت في ممارسات المسلمين – ويشير إلى من أكبر مشاكل الإسلام كعقيدة تحررية أنه لايقدم شيئا في تحرير المرأة وأن شهادة المرأة مردودة– وهذا غير صحيح حيث شهادتها في زوجها تنسخ شهادة زوجها وأن شهادة الذمي غير مقبولة في المحاكم ( لا أدري من اين جاء بهذا ؟

ويشير إلى أن اهم مشالك التمدن الإسلامي المعاصر، أنّ معظمه مستورد من عالم الكفار وأن المسلم ممزق حيث يرى أن حضارة الكافر تشكل مائدته وهندسة طرقه وبنائه وهندامة ولسانه وبنائه العقلي وتسليحه ونظم جيشه وعملته. وأن قواعد دولته هي الدولة الترابية العلمانية وليست دولة الامة ولذلك العالم الإسلامي على مفترق طرق بين حنين لماضي مندثر ومستقبل لا يملك، فيه مؤهلات ويشير إلى حروب العالم الإسلامي وآخرها اجتياح العراق للكويت على يد الرئيس صدام حسين ولكن يخطي تماما حينما يقول ان العرب وحدهم مسئولون عن تشكيل مستقبلهم وان الغرب لايتدخل – بينما الأوضاع تكشف ان الغرب اجتاح العراق ليطيح بصدام ويريد إطالة الحرب الأهلية في سوريا وأن روسيا تقوم بالدور القذر فيه في إتفاق وتكامل مع إسرائيل وامريكا – وحصار السودان وإريتريا وغيرها يكشف أن الغرب ليس فقط وراء التجارة والبترول وأمن اسرائيل ولكن كذلك فرض مشروعه الحضاري باسم الديمقراطية ، والكتاب ممتع ووصيتي للباحثين بقراءة بيرنارد لوسي وغيره حتى تتسع مداركهم ويصبحوا جزءا من معركة الحضارة .

ا.                                                                 د. حسن مكي محمد أحمد